البيان المجازي و وظائفه الحجاجية في الخطاب السياسي العربيالـ قديـ م

ابتسام بن خراف أستاذة

جامعة باتنة1 –الجزائر

ibtissem.benkherraf@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2018/03/09 تاريخ القبول: 2018/10/29 تاريخ النشر: 2018/12/27

الملخص

تسعى الدراسة إلى فحص الوظيفة الحجاجية للخطاب السياسي العربي القديم، حيث ستقف عند الأنواع البلاغية التي تُورِّط المتلقي في إنتاج الدلالة بواسطة المقام وتحمله على استخراج المعنى الضمني ومواصلة منطق الحوار في الاتجاه الذي يفرضه المخاطِبُ السياسي.

إن المخاطِب السياسي يسعى إلى تضمين الخطاب دلالات غير حرفية، تضمن له التأثير والإقناع، وذلك عن طريق استعمال المجاز الذي يعد طريقة من طرائق إثبات المعنى وإقامة دليل عليه. لذا ستحلل الدراسة أهم الطرائق التي حصل بها تأثير لمجاز في متلقي الخطاب السياسي العربي القديم و تبين المسار الحجاجي (الاستدلالي) للقول المضمر الناشئ من الأنواع البلاغية .

الكلمات المفتاحية:

الخطاب السياسي العربي القديم–التحليل الحجاجي–المعنى الحجاجي–القول المضمر–المجاز–الأنواع البلاغية–التأثير والإقناع.

Résumé

المنارة للاستشارات

www.m

La présente étude examine la fonction argumentative du discours politique arabe ancien, elle s'intéresse aux figures de style qui implique le récepteur dans une production de la signification à travers la situation dénonciation et la pousse à extraire le sens implicite et poursuivre le dialogue dans le sens imposé par le locuteur politique.

La visée de ce dernier est d'insérer dans le discours, des significations non littérales qui lui permettent d'influencer et de persuader, en ayant recours au figuré qui est vu des moyens qui indique le sens.

Ainsi, cette étude analyse les moyens les plus importants par lesquels le figuré avait influencé le récepteur du discours politique arabe ancien et montre le parcours argumentatif (inférentiel) du sous- entendu crée par les figures de style.

Mots clés : Discours politique arabe ancien, analyse argumentative, sens argumentatif, sous-entendu, figuré, figures de style, influence et persuasion.

Abstract

This paper examines the argumentative function of ancient Arab political discourse, and focuses on stylistic figures that involve the recipient in producing meaning through the denunciation situation, which urges him to extract the implicit meaning to continue the dialogue in the way imposed by the political speaker. This latter includes non-literal connotations in his discourse, which would enable him to influence and persuade the recipient, and one of the ways of providing meaning and establishing evidence is the use of metaphor.

Therefore, this study analyses the most important ways in which the influence of metaphor has been obtained on the recipients of ancient Arab political discourse and shows the argumentative course of implicit utterances created by rhetorical devices.

Keywords: Ancient Arab political discourse, argumentative analysis, argumentative meaning, implied, figurative style, influential and persuasive.

المنارة للاستشارات

www.

تمهيد

يكشف الخطاب السياسي العربي القديم الاحتراف المتمرس للمسلم بأمور الدولة وتفننه في خوض المعترك السياسي، ويبرز درايته بسلطة الكلام بوصفه «سلطانا ما بعده سلطان، وقوة عظيمة لا تخفى وتأثيرا قويا لا ينكر". مما جعله يتوفر على خاصية جوهرية هي: "التأثير والإقناع ".

وحتى تجلي الدراسة هذه الخاصية، ستنظر في الأنواع البلاغية التي توفِّرها لغة الخطاب لتجعل المتلقي يتبنى رأيا ما أو يستجيب لطلب معين أو يغير رأيه حتى يبني موقفا جديدا. سواء أكان هذا الموقف يقتصر على الاقتناع الذاتي أم يقتضي فعلا ما.

1. الوظيفة الحجاجية للمجاز

يقوم المجاز على مبدأ التعويض / الاستبدال[1]، و يعد هذا الأخير انتهاكا لجميع قواعد المحادثة التي حددها "جرايس" "قاعدة النوع: ليكن إسهامك في الحديث صادقا ، قاعدة الكم: ليكن إسهامك في الحديث إخباريا أكثر ما يمكن بحسب ما تتطلبه وضعية المحادثة، قاعدة الطريقة: كن واضحا، قاعدة المناسبة: ليكن إسهامك مناسبا لموضوع المحادثة" بحيث يجد المتلقي نفسه إزاء استلزام [مجموعة من الاستنتاجات المتتالية]، و يدرك بذلك أن المخاطِب يقصد شيئا آخر.

و قد قدَّم "سيرل" هذا المبدأ (الاستبدال) عند طرحه لمفهوم الدلالة غير الحرفية في نظريته، محددا بذلك الحالة العامة للتلفظ [المجازي] الاستعاري:

« يُعبِّر متكلم عن القضية (أ هي ب) باستعمال مقول بديل (أ هي ج) و على الرغم من القرابة بين (ب) و (ج) فالحاصل هو التنافر بين دلالة الملفوظ [الدلالة الحرفية] و دلالة التلفظ [الدلالة غير الحرفية]. و على السامع القيام باستدلالات لاستيعاب المقصدية »[2].

ينشأ عن هذا المبدأ الاستبدالي الوظيفة الاستدلالية / الحجاجية للمجاز و المتمثلة في تجسيد المعاني وجعلها مرئية مشاهدة و جعل حضورها في ذهن المتلقي أقوى و وقعها عليه أشد و أثرها فيه أعمق[1].

---

[11] يرى بعض الدارسين المحدثين أن منشأ المجاز هو التفاعل بين عنصرين لغويين متجاورين و ليس الاستبدال، فهو عدول نسقي لا جدولي.

[2] ينظر عبد الرحيم العماري، نسق التواصل بالمغرب المعاصر، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2001.

المنارة للاستشارات
www.

إن المجاز كلام نصفه –و هو المصرح به– من صنع المخاطِب ، و نصفه و هو الضمني [بؤرة الحجاج] من صنع المتلقي، هذا الأخير يضطر إلى استنتاجه (الضمني) بنفسه بواسطة مجهوده التأويلي، فلا يستطيع رده ومن ثم لا يمكنه إنكار ما عرضه عليه المخاطِب.

و يمثل المجاز في الخطاب السياسي الأنواع البلاغية الآتية: الاستعارة (التصريحية، المكنية، التمثيلية)، الكناية، وهي ملفوظات تُورِّط المتلقي في إنتاج الدلالة بواسطة المقام الذي يُلقى فيها و تحمله على استخراج المعنى الضمني و مواصلة منطق الحوار في الاتجاه الذي يفرضه المتكلم بوساطة أداة الربط و الاستنتاج "**إذن**"[2].

و فيما يلي تحليل لأهم الطرائق التي حصل بها تأثير المجاز في متلقي الخطاب السياسي العربي القديم، و بيان للمسار الحجاجي (الاستدلالي) للقول المضمر الناشيء من الأنواع البلاغية المذكورة سابقا:

1.1. حجاجية الاستعارة التصريحية و المكنية

إن الاستعارة عملية ذهنية، تقوم على التقريب بين موضوعين أو وضعين، و ذلك بالنظر إلى أحدهما من خلال الآخر. ويسوغ التقريب بواسطة ملاحظة علاقة ذات طبيعة حوارية و تشبيهية .وتنتج وتدرك الاستعارة من خلال السمات المشتركة و السمات الخلافية ، حيث يتأسس التفاعل بين الطرفين الذي يؤدي إلى وحدتهما وبالتالي رفض دخول الأداة[3].

---

[1]ينظر عبد الله صولة الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2،دار الفارابي، بيروت، كلية الآداب و الفنون، منوبة، دار المعرفة، 2007، ص492.

[2] المرجع نفسه، ص557

[3]عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللغة العربية، مقاربة معرفية، دط1، دار توبقال للنشر، المغرب، ، 2001، ص90.

المنارة للاستشارات
www.

و تكتسب الاستعارة تداوليتها من التأثير الذي تحدثه في المتلقي في سياق معين، حتى و إن صدرت عن موقف المتكلم و موقعه و موضعه الاجتماعي و انتمائه الإيديولوجي، فهي تفضي بالمتلقي إلى الوعي و الحصول على التجربة المعدلة للسلوك و المحاولة من الانفعال إلى الفعل[1].

و تعد هذه الصورة البيانية (الاستعارة) أهم الحجج التي اعتمدها المخاطِب السياسي لإمداد الخطاب بقوة التأثير و الإقناع، جاء في كتاب الخليفة "عثمان بن عثمان" رضي الله عنه إلى أهل الشام عامة و إلى معاوية و أهل دمشق خاصة، يستنجدهم لنصرته و فك الحصار عنه: « أما بعد فإني في قوم طال فيهم مقامي، و استعجلوا القدر في، و قد خيروني بين أن يحملوني على شارف من الإبل إلى دحل و بين أن **أنزع لهم رداء الله الذي كساني...**»[2]

فحتى يحقق الخليفة الشهيد التأثير في نفوس متلقيه، يقدم لهم خيارات الثوار له، بين الموت أو العزل من المنصب/ الخلع، هذا الأخير الذي عبر عنه في صورة استعارية " **أنزع رداء الله الذي كساني**".

لقد عبر الخليفة "عثمان بن عثمان" رضي الله عنه عن منصب الخلافة / الإمامة بالرداء وشبه الخلع و العزل عن هذا المنصب بنزع الرداء و خلعه. و هي استعارة تصريحية حذف أحد أركانها وهو المشبه "الخلافة". إذ شبه مزاولة الحكم بلبس الرداء أو القميص و أسند هذا الرداء لله تعالى مستندا في ذلك إلى حجة السلطة؛ و هي قوله صلى الله عليه و سلم: { يا عثمان **إن الله تعالى سيقمصك قميصا بعدي** ، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني}[3]. وقمصه

---

[1] محمد سويرتي، اللغة ودلالتها، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، عالم الفكر،الكويت، مج 28، ع3، 2000،ص41-42.

[2] ابن قتيبة،الإمامة و السياسة، تحقيق خليل المنصور،ط1،دار الكتب العلمية، بيروت ،ج1، 2001. ص35.

[3] أحمد بن حنبل ،مسند أحمد بن حنبل، الميمنية، ج6، ص86 و أخرجه الترميذي باللفظ الآتي:« عن عائشة قالت، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : {يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوما فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه}. يقول ذلك ثلاث مرات» ابن ماجة ،صحيح سنن ابن ماجة، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، مجلد 1، الرياض، ط1، 1997، ص55. و جاء في موسوعة الحافظ ابن حجر العسقلاني عن عائشة أنه صلى الله عليه و سلم قال: {يا عثمان إنه لعل الله يقمصك قميصا، فإذا أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم}، رواه

المنارة للاستشارات
www.m

تقميصا: ألبسه قميصا، فتقمص هو ، أي لبسه. و يستعار فيقال: تقمص الإمارة، وتقمص الولاية، وتقمص لباس العز ، و معنى الحديث أن الله سيلبسك لباس الخلافة، أي يشرفك بها ويزينك كما يشرف ويزين المخلوع عليه بخلعته[1].

لقد تحولت الخلافة إلى قميص يقمصه الله لمن يشاء. وأصبحت (الخلافة) بذلك هبة ربانية لا اختيارات إنسانية، و هو الضمني الذي عول عليه المتكلم " الخليفة المحاصر" في إقناع معارضيه فضلا عن أنصاره، و كان تقرير هذا المبدأ بمثابة إلغاء للفارق الديني و الدنيوي من جهة و تحويل السلطة السياسية إلى نص إلهي[2]. رداء الله الذي كساني الـ خـلافـ ة يـ ة تـ ضـي رداء الله،إذن لخلافة تشريف هبة ربانية/ القول المضمر.

إن استنتاج المتلقي سواء أكان معارضا أم مناصرا أن الخلافة هبة إلهية (و هو القول المضمر) سوف يمنعه من الاحتجاج ضد الخليفة ومن ثم يسحب شروطه. و يتأهب المناصر للدفاع عنه. بعد أن يقتنع أن الخلافة هي مسألة ترد إلى القضاء الإلهي لا إلى اختيار الإنسان. و أن التنازل عنها (الخلافة) حسب رأي الخليفة هو تَبرُء من جنة الله و خلافته. قال الخليفة الإمام من أعلى قصره: «... و قد علمت أنهم يريدون بذلك نفسي و أما أن أتبرأ من الأمر، فإن يصلبوني أحب إلي من أن أتبرأ من جنة الله و خلافته بعد قول رسول الله صلى الله عليه و سلم لي: يا عثمان **إن الله تعالى سيقمصك قميصا بعدي** ، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني...»[3] .

لقد أعلن الخليفة إذن مبدأ الحكم الثيوقراطي. مغيرا بذلك المقاييس التي يعتمدها المخاطَب في تقويم الواقع و السلوك.

الترميذي عن عائشة و قال حسن غريب و صححه ابن حبان من هذا الوجه، و أخرجه الحاكم من وجه آخر عن عائشة ضعيف" موسوعة الحافظ ابن حجر العسقلاني الحديثية، جمع و إعداد وليد أحمد الحسن الزبيدي و آخرون،سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا، مجلد 6، ط1، 2002، ص328.

[1] ينظر لسان العرب، مادة قمص.

[2] ينظر حامد أبو زيد ،، الخطاب و التأويل،ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص 131.

[3] الإمامة و السياسة، ص39.

المنارة للاستشارات
www.

و عبر سلسلة من الاستعارات المكنية عبَّر بنو كنانة أخوال "مروان بن الحكم" عن تأييدهم المطلق له و مدى غضبهم لعزل "معاوية" لعامله على المدينة حيث قالوا له: « **نحن نبلك في يدك و سيفك في قرابك فمن رميته بنا أصبناه و من ضربته بنا قطعناه الرأي رأيك و نحن طوع يمينك**»[1].

لقد حاول المخاطِب أن يجسد معاني الانقياد المطلق لمتلقيه مستعينا في ذلك بوعي هذا الأخير لتأويل الصور البيانية (التشبيه البليغ و الاستعارة المكنية)، حيث يتشخص المستعار له (أقرباء مروان بن الحكم و عشيرته) نبالا و سيوفا (المستعار منه المحذوف) بقرينة الفعلين المستعارين (**رمى، قطع**)؛ كلما أرادهم وجدهم لا يفارقونه كما لا تفارق النبال و السيف الفارس المحارب، و هم شداد حداد؛ و لكي يُكثِّف معنى الطاعة المطلقة يضيف صورة استعارية أخرى عبر تشييء المستعار له بقرينة اللفظ المستعار "**طوع يمينك**" كناية عن مدى مرونته و طواعيته فيكون (المخاطِب / المستعار له) بذلك سندا له في السراء و الضراء.

و بهذا التجسيد للمعاني يحقق الخطاب نجاعته، بمخاطبته وجدان المتلقي و فكره معا. بعد ربطه (الخطاب) بالواقع الذي استمد طاقته الحجاجية منه. و هو (المخاطِب/ المستعار له) بذلك يتماهي في ضربة سيف أو رمية سهم في زمن العسر و الشدة.

إن القطع بالسيف كالسكين و الرمي بالسهم (النبل) ليس إلا تجسيدا لمعنى بث الفزع و الجزع في نفوس الآخرين. و هي خلاصة تعد وليدة التجربة المتحققة في ميادين الضرب و الطعن.

و فيما يلي توضيح للقول المضمر المتستر في الصور الاستعارية :

1. من رميته بنا أصبناه و من ضربته بنا قطعناه/ القول المضمر: بنو كنانة يبثون الرعب و الفزع في نفوس أعدائهم

نحن (بنو كنانة) طوع يمينك (مروان بن الحكم) / القول المضمر:

الانقياد و الوفاء المطلق لمروان بن الحكم/ المعاهدة على لزوم الطاعة.

[1] المرجع نفسه، ص142.

المنارة للاستشارات
www.

و من الاستعارات التي زادت الخطاب السياسي تأثيرا على تأثير و أحدثت ردة فعل في نفس المتلقي قول "الحجاج بن يوسف الثقفي" في خطبته لأهل العراق « **إني أرى رؤوسا قد أينعت و حان قطافها** »[1].

لقد استثمر المخاطِب السياسي القرينة الاستعارية كي يشخص من خلالها المستعار له حيث شبه الرؤوس بزرع أو ثمار و حذفه و دل عليه في (أينعت، قطافها)؛ موحيا بذلك ببلوغ الفتنة مبلغها و ضرورة العقاب و التهديد.

و هذا الملفوظ (الاستعارة المكنية) يمثل السياسة التي رسمها الحجاج لأهل العراق بعد أن رماهم "عبد الملك بن مروان" به لما عُرفوا به من التمرد و الشقاق، و هي سياسة الحزم و القوة مع القسوة و البطش و الظلم و الجبروت.

لقد اشتد الحجّاجُ و قسا و هدّد و توعّد وأبرق و أرعد ، و استعان على إرهابهم (أهل العراق) و التأثير فيهم بما اصطنع من عوامل التهديد و أسباب الترهيب حتى يثبِّت أركان الدولة الأموية[2].

و ترجع نجاعة الوظيفة الحجاجية للملفوظ الاستعاري إلى بناء المتغافل عنه عن الذهن (القول المضمر) على المدرك و المألوف و الذي هو في حيز المشاهدة .

نضوج الثمار و وجوب قطفها أي بلوغ الفتنة مبلغها

نضوج الزرع و وجوب حصاده أي و ضرورة إخمادها و قمعها

لقد كفَّ أهل الكوفة عن ضجيجهم و هابوا المخاطِب بعد أن أَوَّلُوا ما عرضَه عليهم مُستنتجِين بذلك المعلومة المضمرة و التي أحدثت فزعا و رهبة في نفوسهم.

2.1. حجاجية الاستعارة التمثيلية

الاستعارة التمثيلية هي تشبيه حالة بحالة بجامع إثبات العلاقة بين الحالتين، أو هي تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة[1]. إنها تركيب استعمل في غير ما وضع له (في غير معناه الحقيقي) لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي.

---

[1] المرجع نفسه، ص205.

[2] ينظر محمد الطاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام ج2، ص212.

المنارة للاستشارات
www.

أما أصلها فهو تشبيه تمثيلي حُذِفَ منه المشبه (المستعار له) وهو (الحالة والهيئة الحاضرة) وصرح بالمشبه به وهو (الحالة والهيئة السابقة) مع المحافظة على كلماتها وشكلها وتكثر غالباً في الأمثال عندما تشبه الموقف الجديد بالموقف الذي قيلت فيه. أما سر جمالها فهو التوضيح أو التشخيص أو التجسيم.

و يعد المشبه به (المستعار منه) المذكور في أغلب الاستعارات التمثيلية في الخطاب السياسي يعد "مثلا"، و المثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها و يراد استنتاج نهاية احداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها[2]. و له قيمة استدلالية و وظيفة إقناعية و إمتاعية.

و لقد أرجع عبد القاهر الجرجاني أنس النفوس بالتمثيل إلى ثلاثة أسباب هي: إقامة الحجة و المشاهدة و إبداع الخيال.

و من الاستعارات التمثيلية التي وظفها المخاطِب السياسي باعتبارها حججا قوية تخدم النتيجة المقصودة، ما جاء في كتاب "عثمان بن عفان" إلى "علي بن أبي طالب" رضي الله عنهما حين اشتد حصاره: « أما بعد فقد **بلغ السيل الزُّبى**، و **جاوز الحزام الطُّبْيَيْنِ**.و ارتفع أمر الناس في شأني فوق قدره....»[3] .

فحتى يخرج الخليفة المحاصر « ما لم يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، و ما لم تجر به العادة، و ما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة»[4]؛ يقدم الملفوظين الاستعاريين : "**بلغ السيل الزبى**" و "**تجاوز الحزام الطبيين**" لما لهما من وظيفة حجاجية؛ هي بناء المعنى على موضع بات استعارة في خطاب المتلقين، فهما (الملفوظان) يضربان للدلالة على شدة الأمر و تفاقمه، و هما كناية عن المبالغة في تجاوز حد الشر و الأذى.

---

[1] ينظر محمد التونجي، المعجم المفصل في علوم اللغة، مراجعة إميل يعقوب، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ج1، ص35.

[2] ينظر محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 82.

[3] الإمامة و السياسة، ص33.

[4] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص323.

المنارة للاستشارات
www.

فأما "**بلغ السيل الزبى**" فهو كناية عن أنه قد جل الأمر على أن يغير و يصلح؛ جاء في كتاب جمهرة الأمثال « الزبية حفيرة تحفر في نشز من الأرض [رابية لا يعلوها الماء] و تغطى، و يجعل عليها طعم، فيراه السبع من بعيد، فيأتيه، فإذا استوى عليه انفض غطاؤها، فيهوي فيها، فإذا بلغها السيل فقد بالغ»[1]فهي (الزبية) إذن لا يبلغها إلا سيل عظيم.

وأما "**تجاوز الحزام الطبيين**" فهو مثل يضرب للأمر الفظيع الفادح الجليل. وجاوز الحزام الطبيين يعني أن الحزام الذي يشد به الرحل في بطن البعير لئلا يؤذيه التصدير أو يجتذبه قد اضطرب من شدة السير حتى خلف الطبيين مناضطرابه ، فإذا بلغ الطبيين فقد انتهى في المكروه ؛جاء في تاج العروس « والطبي بالكسر والضم حلمات ... وفى المحكم حلمتا الضرع التي فيها اللبن (من خف وظلف وحافر وسبع) وفى الصحاح الطبي للحافر و للسباع كالضرع لغيرها وقد يكون أيضا لذوات الخف، والطبي بالكسر مثله وفى التهذيب قال الأصمعي للسباع كلها الطبي وذوات الحافر مثلها وللخف والظلف خلف (ج أطباء) ...و جاوز الحزام الطبيين أي اشتد الأمر وتفاقم لأن الحزام إذا انتهى إلى الطبيين فقد انتهى إلى أبعد غاياته فكيف إذا جاوزه»[2] .

إن تقديم المخاطِب لهذه الاستعارات التمثيلية يعود إلى وجه الشبه المنتزع من حالات يضم بعضها إلى بعض، مما أدى إلى وجه شبه متحد بين المعنى الأصلي للتركيب (الملفوظين الاستعاريين) و بين الحالة التي استعير لها التركيبان.

فأما وجه الشبه المنتزع فيتمثل في أن بلوغ السيل الزبية يعني أنه سيل عظيم و أما تجاوز الحزام الطبيين فهو انتهاؤه إلى أبعد غاياته و أما الطعن على "عثمان بن عفان" رضي الله عنه خاصة بعد خروج "علي" رضي الله عنه إلى بعض البوادي قد تفاقم و بلغ شدته.

إن الملفوظين الاستعاريين يحملان متلقي الخطاب على الإسهام في صنع الكلام الضمني و إماطة اللثام عنه، كما يستفزانه لإدراك العلاقات القياسية التي ينطويان عليها، بعد أن يعمل كفايته الثقافية.

---

[1] العسكري ، جمهرة الأمثال،حققه و علق حواشيه و وضع فوارسه محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش،ط2، دار الجيل، بيروت، ج1، دت،ص220.

[2] الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،دار صادر، بيروت، ج10، فصل الطاء من باب الواو و الياء، ص222.

المنارة للاستشارات
www.

ومن الاستعارات التمثيلية المضروبة في التناهي و المبالغة؛ ما ذكره الحجاج في خطبته التي يأمر من خلالها قتال "عبد الرحمن بن الأشعث" بعد أن وصلته رسالة منه (ابن الأشعث) يذكر فيها خلعان طاعة الحجاج و النهوض لمصاولته: « ... و من لم يذد عن حوضه يهدم، و أرى الحزام قد بلغ الطبيين، و **التقت حلقتا البطان...**»[1]

إن الملفوظ الاستعاري "**التقت حلقتا البطان**" مثل يضرب للأمر يبلغ الغاية في الشدة، و أصله أن الجمَّال (أي من يسوق الجمال أو الإبل) حينما يريد أن يشد الرحل على البعير أو عندما يربط حمله يشد حزاما يدور على الحمل حتى يتصل بعضه ببعض من أسفل بطن البعير و للحزام حلقة في طرف ، وحلقة أخرى تبتعد قليلا عن الطرفالآخر ، فإذا ربط الجمَّال الطرفين بدون مبالغة في الشد فقد يرتخي الحزام فيقع الحمل، ولذا يظل يشد ويشد ويبالغ حتى تتصل الحلقة بالحلقة و عند ذلك تكون نهاية الشد فيربط .و لذا يقال عند نهاية الشد التقت حلقتا البطان

إن الحجَّاج يرى أن الفتنة قد بلغت أوجها و شدتها ، و هي حجة قوية تبرر حق استعماله للعنف و الإرهاب السياسي حتى يحفظ البنية الاجتماعية القائمة المعبر عنها بالصورة الكنائية "و من لم يذد عن حوضه يهدم".

فحتى يجسد الحجاج المعنى " شدة الفتنة و بلوغها أوّجها" و يجعل حضورها في ذهن المتلقي أقوى و وقعها أشد يقدم الملفوظ الاستعاري "التقت حلقتا البطان" الذي يعني أن الشد قد بلغ أقصاه فلا يمكن الزيادة فيه لأن الحلقتين قد التقتا.و لتبليغ المعلومة للمتلقي؛ يتكىء على ما ينشأ من مفهوم ضمني للملفوظ الاستعاري.

هذا و قد اتخذ معاوية رضي الله عنه الاستعارة التمثيلية شاهدا لا يجرؤ المتلقي على الطعن فيه و وسيلة لتبليغ المعلومة التي هي في حكم الجديد بالنسبة إليه (المتلقي)، جاء في كتابه إلى "أبي أيوب الأنصاري" رضي الله عنهما: « فإني ناسيتك **ما لا تنسى الشيباء** »[2] .

لقد أقرأ أبو أيوب الأنصاري كتابه "عليا" رضي الله عنه فتفطن عليه السلام لهذا الضمني الذي يقبع تحت هذا المنطوق و قال: « يعني بالشيباء المرأة الشمطاء لا تنسى ثكل ابنها، فأنا [معاوية] لا أنسى قتل عثمان»[1].

---

[1] الإمامة و السياسة، ص210.

[2] المرجع نفسه، ص91.

المنارة للاستشارات
www.

إن الملفوظ "**ما لا تنسى الشيباء**" استعارة تمثيلية تناسبية حيث تم وضع شيئين غير متشابهين (عدم نسيان الشيباء لوليدها المتوفى) و (عدم نسيان معاوية لدم عثمان) في وضع المتشابهين اعتمادا على ربطهما بعلاقة متشابهة .

يمثل العنصر (أ) المستعار منه و هو المرأة الشيباء إذا توفي وليدها و هي عجوز لا تنساه (ب)، ذلك أن نسيانه أمر صعب خلاف المرأة التي تثكل و هي شابة. في حين يمثل العنصر (ج) المستعار له (المحذوف) و هو معاوية لا ينس قتل عثمان رضي الله عنهما و هو يستمر في المطالبة بالثأر له (د).

ما لا تنسى الشيباء/ القول المضمر: معاوية لا ينسى قتل عثمان /إذن معاوية يطالب بدم عثمان / خذل الأنصار

سمح هذا القول المضمر الذي أماط اللثام عنه "علي بن أبي طالب" لأبي أيوب الأنصاري أن يرد على كتاب "معاوية" في رسالة بين من خلالها أن الأنصار بريئون من دم عثمان و أن اللوم يقع عليه لا عليهم : « إنه لا تنسى الشيباء ثكل ولدها، وضربتها مثلا لقتل عثمان، فما نحن و قتلة عثمان؟ إن الذي تربص بعثمان، و ثبط أهل الشام عن نصرته لأنت، و إن الذين قتلوه غيرُ الأنصار، و السلام»[2] .

حجاجية الكناية

الكناية من كَنَيْت أو كنَوْت بكذا عن كذا، إذا تركت التصريح بوهي في اللّغة: التكلّم بما يريد به خلاف الظاهر .وفي الاصطلاح: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى[3].

---

[1] المرجع نفسه ص91.

[2] المرجع نفسه، ص91.

[3] ينظر عبد العاطي غريب، البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني و ابن سنان الخفاجي، ط1،دار الجيل، بيروت، 1993، ص243.

المنارة للاستشارات
www.

و يُعرِّفها صاحب كتاب الطراز بأنها « إذا أطلقت ، فالمعنيان ، أعني الحقيقة و المجاز، مفهومان معا عند إطلاقها ، و مثالها قولنا فلان كثير رماد القدر ، فإنك قد استعملت هذه الألفاظ في معانيها الأصلية، وغرضك إفادة كونه كثير رماد القدر إفادة معنى آخر يلزمه و هو الكرم »[1].

إن المتكلم قد يريد إفادة معنى من المعاني ، فلا يذكره بلفظه الصريح الذي وضع له في أصل اللغة، بل يتوصل إليه بذكر لفظ يدل على معنى من شأنه أن يكون متبوعا في التعقل و الفهم للمعنى المراد، و المعنى المتبوع هو المعنى الحقيقي للفظ و المعنى التابع هو المعنى الكنائي المراد من اللفظ و هو المقصود بالإفادة، و به يتعلق الإثبات و النفي ، و إليه يرجع الصدق و الكذب[2].

فالكناية تقوم كغيرها من الصور البيانية على مبدأ الاستبدال و لا تكون (الكناية) إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه، فهي بذلك تخضع لعمليتي الطي و الذكر أي لمبدأ التعويض و الاستبدال. أما وظيفة الإثبات و الاستدلال للكناية؛ فيكون القصد بالإثبات فيها إلى معنى ليس هو معنى اللفظ و لكنه معنى يستدل بمعنى اللفظ عليه و يستنبط منه[3].

إن المتكلم الذي يتفادى التصريح و يُقبِل على التلميح يبتدع إذن الكناية و يراهن في الآن ذاته على ذكاء المتلقي وحدة ذهنه و سرعة فهمه للدلالات الباطنية المختفية وراء المعنى الظاهر. فهو بذلك (المخاطِب) يتكىء على المحل الشاغر (الضمني) الذي يحث المتلقي و يضطره إلى وجوب ملئه ، و هذا الحث و الاضطرار يؤديان به إلى الخضوع لمنطق الكلام .

و تعد الصورة الكنائية من أهم خصائص الخطاب السياسي البيانية المؤدية للإقناع ، و ترجع الطاقة الإقناعية لمادة /موضوع الصورة الكنائية إلى كونها منتزعة من عالم المتلقي / المخاطَب و يمثل هذا العالم تجارب المتلقي المادية و ممارسته المعيشية و مشاهداته العينية و من سلوكه اليومي، فضلا عن معتقداته و فكره و ثقافته[4].

---

[1] يحي بن حمزة، كتاب الطراز، المتضمن أسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز، ص200.

[2] البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني و ابن سنان الخفاجي، ص243.

[3] ينظر مفتاح العلوم، ص412- 413.

[4] ينظر عبد الله صولة،، الحجاج في القرآن ،ص500-501 .

المنارة للاستشارات
www.

تمثل هذه الكفاءة المعرفية و العقدية للمخاطَب **مواضع حجاجية**[1] لكونها محل إجماع و فكرة عامة يؤدي استخدامها في الخطاب إلى اقتناع المتلقي بما يعرض عليه بواسطتها.

و لبيان المسار الحجاجي لأهم الكنايات المعتمدة في توليد الضمني في الخطاب السياسي نعتمد على توضيح المواضع الحجاجية باعتبارها مادة الصورة الكنائية المستمدة منها لغاية الإقناع و التأثير :

1 المقوِّم الثقافي

شكَّل المقوِّم الثقافي أهم موضع حجاجي استمِد منه مادة الصورة الكنائية في الخطاب السياسي، و يمثل حرمة البيت الحرام "الكعبة المشرفة" أحد هذه المقومات الثقافية القائمة في أذهان كل من المخاطِب و المتلقي و المنغمسة في عمق تفكيرهما، ذلك أن "الكعبة الشريفة" تعد معلما من معالم القداسة؛ فهي تمثل بداية الخلق و النشوء ، إذ أن خلقها كان سابقا على خلق الأرض و خلق آدم، و هي امتداد للبيت المعمور الذي خلقه الله تعالى في السماء لتطوف به الملائكة بدلا من طوافها بالعرش[2].

و لقد زادت قداسة البيت العتيق و حرمته بعد الإسلام، خاصة بعدما اقترن بأحد الأركان الأساسية لشعيرة الحج ، الطواف، و هو (الطواف) ممارسة تؤكد رغبة المؤمن الملحة باللحاق بمصاف الطائعين، و العودة إلى المكان الأول: الجنة.

حُرمة البيت المحرم إذن هي مجال من مجالات القوة التي تتيح للمخاطِب السياسي ممارسة السلطة الثقافية، إلا أن والي مكة "خالد بن عبد الله القسري" يعبث بهذا المقدس و يهدم حرمته لأجل إرضاء أحزم بني أمية "عبد الملك بن مروان". حيث قال و ظهره إلى الكعبة قد استند عليها :« **و الله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عني إلا بنقض هذا البيت حجرا حجرا لنقضته في مرضاته**»[3] جوابا لرجل من أهل الشام الذي التمس منه أن يخلِّي سبيل "سعيد بن جبير" .

---

[1] الموضع مبدأ حجاجي عام يستعمل ضمنيا للحمل على قبول نتيجة ما، و يتميز بخصائص عدة هي العمومية و التدرجية و النسبية...إلخ.

[2] ينظر هيثم سرحان، الأنظمة السيميائية، دراسة في السرد العربي القديم، ط1،دار الكتاب الجديد، بيروت، 2008، ص73.

[3] الإمامة و السياسة، ص220.

المنارة للاستشارات
www.

إن الملفوظ الكنائي أعلاه ذو وظيفة حجاجية، حيث عمل المخاطِب السياسي على بناء غير المسلم به عند المتلقي" هدم البيت العتيق إرضاء لعبد الملك" على المسلم به عنده "حرمة الكعبة المشرفة " ، يوضح المسار الحجاجي المخطط الآتي:

الكعبة المشرفة مقدسة في الجاهلية و الإسلام يقتضي: حرمة المساس بقدسيتها، / نقض حجر الكعبة: الولاء المطلق لسياسة عبد الملك بن مروان.(القول المضمر).

3 المقوِّم العقدي

بعد أن خاطب الإسلام الكيان الإنساني كله عقلا و ضميرا و وجدانا ،أصبح القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف المصدرين الأساسيين لثقافة المسلمين الدينية و العقلية، إذ استضاءت عقولهم بهديهما و تأدبت نفوسهم بهما، مما جعل المخاطِب السياسي في كثير من الأحيان يوظف آيات القرآن حججا في حواره و يستمد من أخباره و قصصه مادة لبناء الصورة الكنائية .

فهذا "يزيد بن معاوية" يثير الحمية في نفس متلقيه "أهل الشام" و يقنعهم بما يعرض عليهم من خلال تصويره لحجم ما تعرض له أهله علي أيدي أهل المدينة، حيث صعد المنبر و قال: « يا أهل الشام، فإن أهل المدينة أخرجوا قومنا منها، **و الله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إليَّ من ذلك** »[1].

إن مادة الصورة الكنائية أي مضمونها الذي يعتمد فيه لغاية الإقناع و التأثير مستمد من الثقافة العقدية للمتلقي، إذ أن الملفوظ "تقع الخضراء (السماء) على الغبراء (الأرض)"و الذي هو كناية عن هول يوم القيامة أصبح يقينا في أذهان المتلقي، بعد أن أكد لهم الرسول الكريم أن الموت لم يعد هو النهاية، بل سيبعث الناس يوم القيامة ليُجازوا عن أعمالهم ، فمضمون الصورة لم يصبح غريبا عنهم بل هو معلوم لديهم ، بعد أن ركزت كثير من الآيات الكريمة و الأحاديث الشريفة على بيان علامات يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿**و يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه**﴾[2] أي « و يمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها إلا إذا شاء و ذلك عند قيام الساعة»[3]و قال أيضا: ﴿**و إذا**

[1] المرجع نفسه ص168.

[2] الحج/ 65.

[3] محمدوني علي الصابوني، صفوة التفاسير، مجلد2، ص298.

المنارة للاستشارات
www.

النجوم انكدرت﴾[1]أي «إذا تساقطت من مواضعها و تناثرت»[2] ؛ « قالالكلبيوعطاء :تمطر السماء يومئذ نجوما فلا يبقى نجم إلا وقع على الأرض»[3]، أما في الحديث الشريف فقد روى ابن هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: { **يقبض الله الأرض و يطوي السماء بيمينه** }[4].

إن حادثة خروج بني أمية من المدينة المنورة حدث عظيم جلل في رأي "يزيد بن معاوية" و هو أعظم عنده من هول يوم القيامة ، يوم تفنى الحياة الدنيا ليقف الناس بين يدي ربهم لحسابهم، و إن كان عظم يوم القيامة معروفا واضحا جليا في ذهن متلقيه فهو يعتمد عليه "المفهوم" حتى يكون نفاذ هول الحدث "إخراج بني أمية من المدينة" إلى قلوبهم و عقولهم في سهولة و يسر و من ثم يحصل إقناعهم بما أراد دون صعوبة أو عسر. يوضح ذلك المخطط الآتي:

المعلوم لديهم : سقوط السماء على الأرض يقتضي هول يوم القيامة/حدث الإخراج أعظم(القول المضمر)

و من التعابير الكنائية التي اعتمد المخاطِب السياسي على الضمني الذي تنطوي عليه في صنع الحجة المفحمة المقنعة، جواب "الصلت بن زفر" للعبسي عندما خوَّفهم هذا الأخير بغضب و حزن أهل الشام على مقتل "عثمان رضي الله عنه" و استعدادهم لقتال علي كرم الله وجهه و أنصاره: « ... يا أخا عبس، أتخوف المهاجرين و الأنصار بخضر خيلك، و غضب الرجال؟ أما و الله ما نخاف غضب رجالك، و لا خضر خيلك، فأما بكاء أهل الشام على قميص عثمان، فو الله **ما هو بقميص يوسف و لا بحزن يعقوب...**»[5].

---

[1] التكوير/2.

[2] صفوة التفاسير، مجلد3، ص524.

[3] الشوكاني، فتح القدير ، الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير، راجعه يوسف الغوش، ط3،دار المعرفة، بيروت، مجلد2، 1997، ص477.

[4] البخاري، صحيح البخاري،دار الفكر، بيروت، 1981، ج6، ص158.

[5] الإمامة و السياسة، ص73

المنارة للاستشارات
www.m

يتكئ إذن "الصلت بن زفر" على القصص القرآني جاعلا منه مادة و موضوعا في صنع الصورة الكنائية " **ما هو بقميص يوسف و لا بحزن يعقوب**"؛ التي **قزَّم** بها حزن و غضب أهل الشام على مقتل عثمان بن عفان (ض) ، ذلك أن حزنهم و بكاءهم وإن كان كبيرا و شديدا فهو لم يبلغ حزن و بكاء يعقوب عليه السلام على ابنه ، قال تعالى: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1].

لقد حزن يعقوب على يوسف عليه السلام حزن سبعين ثكلى و بكى عليه حتى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ؛ لما كان يذرفه من دموعٍ حارّةٍ حزينةٍ أثَّرت على بصره حتى فقده، ولم يكن ذلك بفعل عنصر الجزع، بل بفعل الدموع التي كانت تنساب بهدوءٍ كتعبيرٍ صافٍ عن عمق الحزن الهادئ. إنه حزن على افتقاد قرة عينه وثمرة فؤاده، و ما كان يحمله من ألمعية الفكر، وروحانية الروح، وجمال النفس والجسد، وبما كان يُعدُّ له من الموقع العظيم الذي يمنحه الله لبعض عباده من ذرية إبراهيم(ع)، ممن تجتمع فيه الصفات المميزة التي تؤهِّله لحمل الرسالة والوصول إلى مستوى النبوة.

و أما قميص عثمان (ض) الذي نشره معاوية على المنبر ليُهيِّج به مشاعر أهل الشام فهو لا يبلغ – حسب رأيه– تأثيره فيهم ، كأثر قميص يوسف الملطخ بالدم في نفس يعقوب عليه السلام . قال تعالى: ﴿ وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ المستعان على ما تصفون ﴾[2].

إن القميص الملَّطخ بالدم هو الدليل الكاذب على اتهام بني يعقوب الذئب بأكله يوسف عليه السلام. و هو أيضا إشارة إلى أن حدث الافتراس ليس إلا إدعاء و هو قضية غامضة لا يمكن تفسير طبيعتها، و التي بقيت بين احتمال تصديق يعقوب لبنيه في افتراس الذئب يوسف و أكله إياه، و احتمال تآمرهم عليه[3].

---

[1] يوسف/ 84

[2] يوسف/18

[3] ينظر محمد بكر إسماعيل، قصص القرآن الكريم، من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل، ط2،دار المنار، مصر، 1997، ص102-104.

المنارة للاستشارات
www.

لقد استعار إذن "الصلت بن زفر" قميص يوسف و حزن يعقوب للدلالة على قمة المأساة وشدة الحزن و نفى أن حدث قتل عثمان (ض) هو أكثر مأساة من مأساة يعقوب عليه السلام وأن حزن أهل الشام كشدة حزن يعقوب عليه السلام، فهم "معاوية و أنصاره" إن بكوا عليه بالشام فقد خذلوه بالحجاز.

إن " الصلت بن زفر" بهذا الملفوظ الاستعاري يضغط على المتلقي لإماطة اللثام عن الدلالة الباطنية و من ثم استخراج الأقوال المضمرة التي نحددها فيما يلي:

–الحزن و البكاء مصطنعان.

– البكاء و الحزن مكيدة لإعلان الحرب على علي

–معاوية طامع في الخلافة

–الثأر أو المطالبة بدم عثمان مجرد خدعة مكشوفة

– غيرة بني أمية من سيادة بني هاشم

– التضليل المتقن

خاتمة

استطاعت الملفوظات المجازية أن تورّط المتلقي في إنتاج الدلالة بوساطة المقام الذي أُلقيَت فيه، و أن تحمله على استخراج الضمني، و من ثم تحريك همته إلى الاقتناع، من خلال الاستنتاج و العبور بالرابط "إذن"، و أظهر ما كان ذلك في الشكل الكنائي؛ الذي يمكن أن يعد بحق من الخصائص البارزة للخطاب السياسي العربي القديم. أما عالم خطاب المتلقي (الكفاءة المعرفية و العقدية و الثقافية) فقد عُدَّ من أهم المواضع الحجاجية التي استمد منها المتكلم مادته في صنع الصورة البيانية.

المنارة للاستشارات
www.